الفصل الثاني

1 ـ تاريخ الطائفة

إن غياب النصوص التاريخية المحضة من مخطوطات البحر الميت ينبغي ألا يدهشنا، وكذلك التأريخ لحقبة ما بين العهدين والتأريخ للعصور التوراتية المبكرة، لأن تدوين التاريخ كما نفهم لم يكن نقطة قوية بين اليهود، فلقد اهتم الأخباريون ليس في تدوين معلومات عما مضى من أحداث، بل تركز اهتمامهم على المكانة العلية لدينهم، ولقد نظر في الكتابات المقدسة إلى الماضي «العلماني» وفسر من خلال النبوءات التي تظهر رضى الرب أو عدم رضاه، فحوادث النصر أو الهزيمة في الحرب، والسلام أو الاضطراب الاجتماعي، وخصب المواسم أو المجاعة، يجري عرضها لإظهار محاسن أو آثام الأمة، وللتنبؤ بآثار ذلك كله على المستقبل الموعود، وعندما تكون هناك نبوءة من القرن الخامس ق. م أخفقت في التحقق، لابأس لهم بتجاوزها بعد تعاقب التاريخ وتطوره، وفقط ذكريات عزرا ونحميا، وإعادة رواية حكايات العصور القديمة عن ملوك إسرائيل ويهوذا في سفري أخبار الأيام هي بالنسبة لهم تاريخ حقيقي، وعوضاً عن الاهتمام بالتاريخ الحقيقي اهتموا بتتبع التوقعات الأخروية برؤى نبوءات نهاية الزمان، بحيواناتها المرعبة ومعاركها المخيفة، والإعلان عن الانتصار الحتمي النهائي للعدل والاستقامة في مملكة الرب المقبلة.

وتشكل نصوص النبوءات الرؤية في المخطوطات جزءاً من هذه التقاليد المتأخرة، هذا من جانب ومن جانب آخر وردت جل المعلومات التي نمتلكها عن تاريخ الطائفة مقحمة في داخل كتابات التفاسير للتوراة، فلقد رغب كتاب قمران وهم يتأملون كلمات أنبياء العهد القديم في أن يكتشفوا فيها إلماعات لماضيهم الخاص بهم مع حاضرهم ومستقبلهم، مؤمنين أنهم كانوا يعيشون في آخر الأيام، ولقد قرأوا أحداث أيامهم كتحقيق للتوقعات التوراتية، فضلاً عن هذا هناك إشارات تاريخية عابرة قد بقيت لنا في التقاويم الطقوسية، وفي الصلوات المنظومة شعراً. (ق4 ـ 448).

ومع هذا فإن كل ما تقدمه هذه المصادر غير التاريخية هو شذرات، وبالاستعانة بالمكتشفات الأثرية في قمران لا يمكننا تقديم رواية متواصلة أو واضحة، وفي سبيل فهم ماضي هذه الطائفة حسبما تطور داخل الإطار الأوسع لحقبة ما بين العهدين من التاريخ اليهودي، يتوجب علينا الاعتماد بشكل رئيسي على فلافيوس يوسفيوس، وهو يهودي فلسطيني أصبح فيما بعد رجلاً إغريقياً بالكتابة، وكذلك على الكتّاب اليهود الهلنستيين الآخرين، مثل كتّاب سفري المكابيين وفيلو الإسكندري، وهم جميعاً ورثوا نزوعاً إغريقياً من أجل تدوين التاريخ وتفسير أحداث الماضي، وانطلقوا نحو تصوير حياة يهود فلسطين لذاتها، ثم كجزء من العالم الإغريقي ـ الروماني، وذلك منذ أوائل القرن الثاني ق. م إلى الحرب الأولى ضد الرومان في 66 ـ 70م، وإنه فقط من خلال مساعدة اللوحة الكبيرة التي رسمت من قبل هؤلاء العلماء القدماء يمكننا أن نحدد مكاناً للإشارات التاريخية الموجودة في المخطوطات، وهي إشارات في الغالب خفية.

1 - التاريخ اليهودي لما بين العهدين 200 ق.م - 70م

مر يهود فلسطين في بداية القرن الثاني لما قبل الميلاد في حالة من الأزمات، فقد استولى ألكسندر الكبير على الأراضي المقدسة في سنة 332 ق. م، وبعد حقبة عدم

الوضوح المبكرة التي أعقبت وفاته، غدت هذه الأراضي جزءاً من إمبراطورية البطالمة الإغريق حكام مصر، وفي القرن الثالث تجنب البطالمة بقدر الإمكان، التدخل في الحياة الداخلية لليهود، وفي الوقت الذي طُلب فيه دفع الضرائب، بقي اليهود تحت حكم الكاهن الأعلى ومجلسه، وحدثت تطورات كبيرة في البنى الأساسية للسكان خلال هذه الحقبة، فقد جرى بناء مدن هلنستية على طول شواطئ البحر المتوسط مثل: غزة، وعسقلان، ويافا. ودور [الطنطورة] وعكا التي أعيدت تسميتها فأصبحت بطوليس، وفي داخل البلاد أيضاً إلى الجنوب من بحيرة طبرية، ولدت مدينة بيسان القديمة مجدداً كمدينة إغريقية اسمها سقيثوبولس، وتهلنست مدينة السامرة حاضرة السامريين فأصبح اسمها سبسطية، وعبر الأردن أعيد تأسيس ربة عمون (عمان) باسم فيلادلفيا، وبكلمات أخر اتخذ المقدونيون والفينيقيون الهلنستيون مقراً دائماً على أرض فلسطين، وبات انتشار الحضارة الإغريقية الأوسع مع الثقافة مسألة مجرد وقت.

ومع استيلاء السلوقيين أو الإغريق السوريين على الأراضي المقدسة في 200 ق.م، ظهرت أولى العلامات عن خضوع اليهود المطلق ووقوعهم تحت نفوذ ثقافة أجنبية، ففي سفر الإلهيات الأبوغرفاوي، الذي يعود تاريخه إلى بداية القرن الثاني ق.م عبّر كاتبه يسوع بن سيراخ، وهو حكيم من القدس، عن غضبه على هؤلاء «الرجال الكفار» الذين «هجروا شريعة الرب العلي الأعلى» (41/ 8)، لكن المشاكل الحقيقية بدأت عندما شرع أنطيخوس الرابع أبيفانس (175 ـ 164 ق.م) بالمتابعة الرسمية الحماسية لتنفيذ برنامج لهلنسة اليهود، وقد تبنى هذا البرنامج بكل غيرة وحماسة النخبة اليهودية، وكان قائدَ نشاطات التحديث أخو الكاهن الأعلى أونياس Onias الثالث، وقد عرف باسم يسوع بين زملائه، وقد تبنى اسم ياسون Jason الإغريقي، وشرع في تحويل القدس إلى مدينة إغريقية، وقد بنى ملعباً للتدريبات الرياضية هناك، وشجع شباب اليهود وأقنعهم بالمشاركة في الألعاب الرياضية، ونقرأ في سفر المكابيين الثاني وصفاً للحالة:

«وهكذا وصلت الهلنسة الذروة مع إدخال العادات الأجنبية بوساطة الشرير بلا حدود، والضال ياسون، الذي لم يكن كاهناً أعلى حقيقياً، ونتيجة لذلك لم يعد الكهنة يمتلكون أية حماسة لتأدية واجباتهم أمام المذبح، لكن ازدروا الهيكل وأهملوا الأضاحي، وفي تحد للشريعة أسهموا بحماس في نفقات مدرسة المصارعة، كلما استدعاهم نداء الافتتاح، ولم يقيموا وزناً للكرامة والمفاخر الموروثة، بل أولوا عنايتهم فوق كل شيء للشرفيات الهلنستية». (المكابيون 2: 4/ 13 ـ 15).

وخلف ياسون كاهنان أعليان من ذوي الميول الهلنستية هما مينالوس Menalaus وألكيموس Alcimus، وزار أنطيخوس الرابع القدس في سنة 169 ق.م، ونهب الهيكل، لكن عندما حرم فعلياً سنة 167 ممارسة اليهودية بمعاقبة من يفعل ذلك بالموت، وأعاد تكريس هيكل القدس لزيوس الأولمبي ـ «البغيض المهجور» ـ نهض أعداء الهلنسة أخيراً بمقاومة عنيفة، وقامت ثورة مسلحة حركها الكاهن متتيا Mattathias وأولاده الأخوة المكابيون يؤيدهم اليهود المحافظون، وبشكل خاص جماعة الأتقياء: الأسيديون Asidaeans أو الهسيديميون Hasidim «مؤمنو إسرائيل، كل واحد منهم متطوع في سبيل الشريعة» (مكابيون 1: 2/ 42 ـ 43)، وقد قادهم يهوذا Judas مكابي، وبعد وفاته على أرض المعركة تولى قيادتهم أخواه يوناثان وسمعان، ولم يتمكن المدافعون المتحمسون عن اليهودية ليس فقط من استعادة العبادة اليهودية في القدس، بل استطاعوا ـ خلافاً لجميع التوقعات ـ حتى أن يطردوا الحكام السلوقيين وتحرير أراضيهم.

ولم يكن انتصار المكابيين نصراً مباشراً للربوبية والعدالة على الكفر والطغيان، بل ترافق مع اضطرابات دينية واجتماعية، فلقد كان هناك أولاً تغييراً في وراثة منصب الكاهن الأعلى، فمع مقتل أونياس الثالث وطرد المغتصب لهذا المنصب ـ أخيه ياسون ـ نجد أسرة صادوق التي توجب أن يكون منها شاغل منصب الكاهن الأعلى حسبما قضت التقاليد، فقدت احتكارها للمنصب الذي شغلته لقرون، زد

على هذا أن أونيا الرابع بن أونيا الثالث عندما منع من انتزاع منصب الكاهن الأعلى من مينالوس، هاجر إلى مصر، وخرق بشكل مباشر الشريعة التوراتية التي قضت بوجود هيكل واحد في القدس، وبني هيكلاً يهودياً في لينتوبولس (مدينة عبادة الأسد) وذلك بمباركة من الملك البطلمي فيلوميتور (182 ـ 146 ق.م)، ولا بد أن افتتاحه لعبادة إسرائيلية خارج صهيون، بتغاض من بعض الكهنة واللاويين، قد أغضب كل فلسطيني محافظ، بما في ذلك الكهنة الذين انتموا إلى الأسرة الصادوقية أو كانوا متحالفين معها.

وكان هناك أيضاً اضطرابات بين صفوف المكابيين أنفسهم، فقد انشق الهسيديميون ـ أو جزء من جماعتهم ـ عندما جرى تعيين ألكيموس ـ الذي وثقوا به ـ راهباً أعلى في عام 162 ق.م، وتبرهن أن هذه الحركة من جانبهم أنها كانت ساذجة، فقد قتل الحلفاء السوريون لألكيموس ستين منهم في يوم واحد (مكابيون: 7/ 12 ـ 20).

وحدث أخيراً تغيير سياسي رئيسي عندما قبل يوناثان المكابي ـ وهو كاهن ولكن ليس صادوقي ـ في عام 153 ـ 152 ق.م وظيفة الكاهن الأعلى من الإسكندر بالاس، وهو مغتصب للعرش السلوقي، وكان الإسكندر قلقاً بشأن الحصول على دعم يهودي، ولم يكن مخطئاً في اعتقاده أن عرض منصب الكاهن الأعلى لن يلقى معارضة، وكان ما حصل بالنسبة للمحافظين استيلاء غير شرعي على السلطة، وكانوا حتى أكثر انزعاجاً وغضباً بسبب تعيين سمعان المكابي في سنة 140 ق.م. كاهناً أعلى، وقائداً وراثياً للشعب بوساطة مرسوم وافق عليه التجمع الوطني اليهودي، وقد حدث هذا كله إثر إعدام يوناثان في سنة 143 ـ 142 ق.م من قبل القائد العسكري السوري تريفون Tryphon.

ومنذ ذلك الحين حتى قيام بومبي في سنة 63 سنة ق.م بتحويل الدولة اليهودية المستقلة إلى مقاطعة رومانية حُكم اليهود من قبل أسرة جديدة من الكهنة الأعلين، الذين غدوا فيما بعد كهنة ملوك، وعرفوا باسم الهسمونيين، اشتقاقاً من اسم جدهم

هسمون المكابي، أو اسمينو حسبما روى يوسفيوس ـ حرب: 1/ 36، وخلال السنوات اللاحقة، احتل خلفاء سمعان ـ خاصة جون هركانوس الأول Hyrcanus (134 ـ 104 ق. م) والإسكندر يانوس، الذي بواسطته أخذ دورهم السياسي سابقة الاستيلاء على منصب الكاهن الأعلى ـ مدينة هلنستية فلسطينية إثر أخرى، واستولوا على الأراضي المجاورة في أدوم في الجنوب والسامرة في الوسط، وايتوريا في الشمال.

وحظي الحكام الهسمونيون خلال حقبة التوسع الإقليمية هذه بتأييد الصدوقيين، وهم حزب ديني بين ثلاثة أحزاب دينية ورد ذكرها للمرة الأولى أيام يوناثان المكابي (أنظر يوسفيوس ـ التاريخ القديم: 8/ 171) وكانت هذه الأحزاب حلفاء دائمين للحكومة، وقد عاداها الفريسيون، وهي جماعة جلها من العلمانيين تفرعت من واحد من فروع الحسيديين في العصر المكابي، فمنذ أيام جون هركانو الأول كانت هنالك معارضة فريسية لاغتصابه منصب الكاهن الأعلى، علماً أنهم كانوا على استعداد للاعتراف به قائداً وطنياً. (التاريخ القديم: 8/ 288 ـ 298)، ولكن في مناسبة أخرى على الأقل أمكن التغلب على معارضتهم بالقوة، فقد اتهموا بالتآمر ضد الإسكندر يانوس في سنة 88 ق. م، بالاتفاق مع الملك السلوقي السوري ديمتريوس الثالث يوكاروس Demetriusiii Eucaerus ونتيجة لذلك جرت إدانة ثمانمائة من الفريسيين، وحكم عليهم يانوس بالإعدام صلباً (التاريخ القديم: 8/ 380 ـ 383؛ الحرب: 1/ 96 ـ 98).

وبعد استيلاء بومبي على القدس استمر منصب الكاهن الأعلى بيد الهسمونيين لمدة ثلاثة عقود أخرى، غير أن السلطة السياسية التي كانت رسمياً عائدة إليهم انتقلت إلى المتهود الأدومي هيرود الكبير، عندما رفع إلى عرش القدس من قبل روما في عام37 ق. م، وفي السنة الأخيرة أو الثانية قبل الأخيرة من نهاية حكمه ـ توفي سنة 4 ق. م ـ ولد يسوع الناصري وذلك وفقاً لرواية إنجيلَيْ لوقا ومتى (متى: 2/ 1؛ لوقا: 1/ 15).

وبعد الحكم القصير لهيرود اركيلوس Arckelous (4 ق . م ـ 6م) الذي خلف هيرود الكبير، والذي خلعه أغسطس لسوء حكمه لكل من اليهود والسامرة سواء، استمرت منطقة الجليل شبه مستقلة ذاتياً حيث حكمها الأميران الهيروديان: أنتباس Antipas (4 ق . م ـ 39م) وأغريبا (39 ـ 41م) لكن اليهودية وضعت تحت الإدارة الرومانية المباشرة، ووصل في سنة 6م كوبونيوس Coponius أول مفتش روماني لليهودية ليتسلم وظائفه هناك، واستمر حكم المفتشين هذا، الذي عدّ بونتوس بيليت Pontius Pilate (26 ـ 36م) الممثل الأسوأ سمعة له، خمساً وثلاثين سنة، أي حتى سنة 41م، عندما عين الإمبراطور كلوديوس Claudius أغريبا الأول ملكاً، وقد توفي هذا الملك بعد ثلاث سنوات، وفي 44م عاد حكم المنطقة مرة أخرى ليحتكر من قبل الرسميين الرومان، وكانت معاملتهم الفاسدة، ومعالجتهم غير الحكيمة للمشاكل اليهودية أحد الأسباب الرئيسية لحرب عام 66م، التي قادت إلى تهديم القدس في عام 70م، وبالتالي إلى انحدار الصدوقيين، والقضاء على القنائين Zealots في مسعدة عام 74م، واختفاء الإيسينيين، وبقاء تحكم الفريسيين بلا معارضة مع خلفائهم من الحاخامات.

إنه في هذا السياق العام لأحداث ذلك التاريخ ينبغي إقحام قمران، وبعد الفحص والتدقيق في كل وثيقة، وثيقة من المخطوطات، وجمع المعلومات الأدبية مع كل من مكتشفات قمران الأثرية وتقارير الأحداث التي قدمها يوسفيوس، نأمل في النهاية أن يحتل تاريخ طائفة قمران مكاناً معتمداً.

2 ـ تاريخ الإيسينيين

أ - إشارات خفية في المخطوطات

يبدأ البحث عن إشارات حول أصل الحركة وقصتها في وثيقة دمشق بسبب أنها غنية بشكل خاص بمثل هذه الإشارات، هنا قيل بأن ولادة الطائفة قد وقعت في «عصر الغضب»، بعد انقضاء 390 سنة على خراب القدس من قبل نبوخذ نصر، ملك بابل، ففي ذلك الوقت نبت «جذر من إسرائيل وهارون»، بمعنى أن مجموعة من الأتقياء اليهود من علمانيين وكهنة ظهروا إلى الوجود في حالة من حالات التخلي عن السلوك الرباني العام، وتجمع هؤلاء الناس لسلوك الدرب لمدة عشرين عاماً، وعندها بعث الرب إليهم «معلم الحق والصلاح» «ليقودهم في درب قلبه» ولم يواجه المعلم بقبول إجماعي داخل التجمع، و«نزعت فئة»، وصفت «بطلبة الأشياء اللينة»، «الروابط» و«بنت جداراً عازلاً»، وتشير هنا جميع التضمينات كما يبدو إلى تراخي ديني وكفر وجّه ضده، وضد أتباعه، ويبدو أن قائد الفئة المنشقة، مع أنه وسم بعدد من المثالب والمعائب مثل «أضحوكة» و«كاذب» و«متلفظ بالكذب» يبدو أنه شخص واحد، وأنه في جميع الحالات هو نفسه، وأتباعه ممن يقترفون الخطيئة بقضايا النظافة الطقوسية، والعدالة، والمعروف، ومواعيد الأعياد، والعبادة في الهيكل، لقد كانوا يحبون المال، وأعداء للسلام، وإثر صراع قتل فيه الأخ أخيه، مضى المعلم مع الذين ظلوا مخلصين له إلى منفى اختياري في «أرض دمشق»، حيث دخلوا في ميثاق جديد، وهناك جرى استدعاء معلم الحق والصلاح، يعني أنه مات، وفي الوقت نفسه بقي الشرير يتحكم بالقدس وبالهيكل، لكن ليس دون أن يعاني من الانتقام الرباني على يد «مقدم ملوك الإغريق».

وتظهر هذه الصورة نفسها من التعليقات على حبقوق مع إشارة واضحة إلى تخلي بعض مريدي معلم الحق والصلاح عنه والتحاقهم بالكذب، وأيضاً تخلي

أعضاء من غير المؤمنين والتحاقهم «بالميثاق الجديد»، والإشارات هنا إلى الصراع العدائي أكثر حدة منها في «وثيقة دمشق»، ونعلم أيضاً أن النذل، الذي عرف بهذا المخطوط باسم «الكاهن الشرير» وكذلك «بالكاذب» و«المتلفظ بالكذب» كان قد «دعي من قبل باسم الصادق» قبل أن يصبح حاكم الإسرائيليين، وقبل أن يفسد بوساطة الثروة والسلطة (8/ 8 ـ 11)، ويفيد هذا أنه كان قد لاقى قبول الطائفة لبعض الوقت، لكنه على كل حال دنس فيما بعد القدس والهيكل، وأذنب تجاه معلم الحق والصلاح، وصدّ مريديه، ولاحقه لينزل به العقاب بينما نظر «بيت أبسالوم Absalom» بصمت إلى ذلك، (5/ 9 ـ 12) وهاجمه في مكان منفاه في «يوم التكفير» لدى الطائفة، (11/ 6 ـ 8): «لقد آذى وأغضب نخبة الرب» و«تآمر لتدمير الفقير» أي الطائفة، واستولى على ثرواتها، وكعقاب له ألقاه الرب في «أيدي أعدائه» الذين «انتقموا من جسده» (9/ 2)، وتنبأ المعلق أنه في يوم الحساب الأخير، سيفرغ الكاهن الشرير «كأس غضب الرب»، واتهم «آخر كهنة القدس» من خلفائه بجمع «المال والثروات بتشتيت الناس» أي الأجانب، ولكن ـ كما أكد المعلق ـ ستنتزع جميع ثرواتهم ومغانمهم منهم بوساطة الرومان (كتيم Kittim) الذين سيقهرون العالم، مرسلون من قبل الرب ليدفعوا لهم ما يستحقونه من جزاء عادل.

وبسبب الفراغ بالنص لا يمكن للإنسان أن يكون متأكداً من التعليق على حبقوق فيما إذا كان المعلم كاهناً، وبالمقارنة نجد أن التعليق على المزمور 37 يجعل هذا واضحاً وذلك بوساطة تفسير ما جاء في الفقرتين 23 ـ 24 حيث قال: «هذا يخص الكاهن معلم [الحق والصلاح]» فضلاً عن هذا يزودنا هذا التعليق بتفاصيل هامة بإيضاح أن «عنف الأمم» ـ أي غير اليهود في مواجهة اليهود ـ تمثل بتنفيذ حكم الإعدام ضد الكاهن الشرير، وهناك نقطة أخرى مفيدة جاءت الإشارة إلى أن أعداء الطائفة هم «الأشرار من آل أفرام ومنشا»، أي من بين الفئتين المتميزتين، وقد ظهرا ثانية في التعليق على ناحوم.

وفي المنتقيات المسائحية أو «الإنجيليات» تظهر الإشارات في الفقرة الأخيرة إلى «آلتين للظلم» حكمتا في القدس، وقد لعنتا لجعلهما القدس «حصنا للكفر»، ولاقتراف «الآثام البغيضة» في البلاد، وقد قيل بأنهما سفحا دماءً «مثل الماء على دفاعات ابنة صهيون»، ولا يمكن تحقيق العلاقة بين الطاغيتين بشكل مؤكد، بسبب الطبيعة التفتتية للمخطوط، ومن الممكن أنهما كانا أباً وابناً، هذا ومن جانب آخر إن عبارة «آلتين للظلم» تعتمد على ما جاء في سفر التكوين الإصحاح: 49، حيث جرى وصف الأخوين القاتلين: شمعون ولاوي، مدمرا شكيم.

وينتقل التعليق على ناحوم نحو عصر يلي عصر معلم الحق والصلاح والكاهن الشرير، حيث لم يرد ذكر أي منهما، والشخصية الرئيسية هنا هي «الأسد الشاب الغاضب» وهو حاكم يهودي للقدس، فهو كما قيل قد انتقم من «الطالبين للأشياء اللينة»، والذين انتقدهم لدعوتهم «ديمتريوس» ملك الإغريق إلى القدس، وأخفقت المحاولة، ولم يدخل أجنبي إلى المدينة «منذ أيام أنطيخوس حتى قدوم حكام الرومان» (كتيم)، وجرى تعليق أعداء «الأسد الشاب الغاضب» وشنقهم وهم «أحياء على الشجرة» وهو اصطلاح عبري دارج كان يعني الصلب، وكما حدث في التعليق على المزمور 37، تمّ ربط الملقبين بـ«أفرام» و«منشا» بخصوم الطائفة، فقد قيل: «مشى أفرايم في الكذب والزيف»، وبسبب وجود سقط في المخطوط، جاء وصف منشا أقل وضوحاً، ومع هذا، يبدو أن هذه الفئة كانت تضم «رجالاً أقوياء» و«رجالاً ذوي مكانة علية».

وكان التعليق على ناحوم أول مخطوطات قمران الذي أباح أسماء تاريخية منها: اسمي ملكين سلوقيين: أنطيخوس وديمتريوس، لكن ما زال من المتوجب تحديد هويتيهما، لأن تسعة من الملوك حملوا الاسم الأول، وثلاثة الاسم الثاني، ووردت أسماء أخرى في مختلف مخطوطات السجلات والتقاويم الطقوسية للكهف الرابع منها: «شلامزيون Shelamzion» وهو الصيغة العبرية لاسم الملكة سالومي ـ الكسندرا، أرملة

الإسكندر يانوس الذي حكم فيما بين 76 إلى 67 ق. م، وهركانوس وجون، ربما جون هركانوس الثاني ابن الكسندرا، والكاهن الأعلى من 76 إلى 67 ق. م، ثم ثانية من 63 إلى 40 ق. م، و«إيملوس Emilius» الذي بلا شك هو م. أميليوس سكاروس، أول حاكم روماني لسورية من 65 إلى 62 ق. م، والذي اتهم بقتل الناس.

وأشارت قطعة من صلاة ـ شعرية (ق4: 448) إلى «الملك يوناثان» مرتبطاً مع القدس والشتات اليهودية، وقام نقاش طويل بين ي و هـ. ايشل لمطابقته مع الإسكندر يانوس، لكن الذي أراه وجود حجج قوية تشير إلى يوناثان المكابي على أنه «الملك يوناثان».

وجرى تقديم الرومان (كتيم) في التعليقين على حبقوق وناحوم على أنهم أدوات عينها الرب لعقاب الكاهن الكافر في القدس، لكن نجد هذا التصور قد تغير في قانون الحرب، وتغيرت الميول نحوهم من جانب الطائفة بجعلهم «الكتيم» يظهرون على أنهم حلفاء الشيطان، وآخر الأعداء الذين سيتم إخضاعهم من قبل أبناء النور، وهذا نجده في نسخة قانون الحرب (ق4 ـ 285)، فمع أنها مفتتة كثيراً فإنها تشير بالاتجاه نفسه.

وتعكس عدة تراتيل قمرانية صورة حياة وعقلية وسلوك معلم، ربما هو معلم الحق والصلاح نفسه، وتبعاً لهذه التراتيل، كان المعلم يواجه العدوان من قبل «مسوغي الخطيئة» و«الخونة» و«المخادعين» ومن قبل «أولئك الذين ينشدون الأشياء اللينة»، وهؤلاء جميعاً كانوا من قبل «أصدقاءه» و«أعضاء في ميثاقه» وحملة «لثقل عقيدته»، والإشارة في أحد التراتيل إلى «مخطط شيطاني» هو مُذكّر بالإشارة التي وردت في التعليق على حبقوق إلى الزيارة التي قام بها الكاهن الشرير إلى مكان نفي الطائفة في سبيل جعلهم «يرتبكون»:

«قام معلم الكذب [بتهدئه] شعبك بكلمات
وقاد أنبياء زائفين نحو الضلال
لقد نفوني من أرضي

مثل نفي طائر من عشه
وهؤلاء معلمو الكذب وكهنة الزيف
قد خططوا ضدي خطة شيطانية
لتغيير الشريعة المغروسة في قلبي بشريعتهم
ومن أجل الأشياء اللينة [التي يتحدثون عنها] لشعبك
ويمنعون عن العطشان شراب المعرفة
ويطفئون عطشهم بالخل
حتى يمكنهم تركيز أبصارهم على ضلالهم
على حماقتهم فيما يتعلق بأيام أعيادهم
على وقوعهم في شباكهم» .

(ق1 ـ ترتيلة شكر: 4/ 7 ـ 12)

وتشير ترتيلة أخرى وتلمح إلى انسحاب المعلم من المجتمع ليعلن بثقة عن إنصافه النهائي الرائع :

«لأنك أيها الرب قد سترتني
من أبناء الرجل
وأخفيت شريعتك فيّ
ضد الزمن عندما تقضي بإظهار
الخلاص لي» .

(ق1 ـ ترتيلة شكر: 5/ 11 ـ 12)

وعدّ بعض العلماء هذه الأشعار بمثابة ترجمة ذاتية ، أي كتبت من قبل المعلم ، لكن يبقى هذا مجرد تخرصات .

ويبدو بعيداً عن الواقع ـ إذا أخذنا بعين التقدير غموض جميع هذه التصريحات ، والطبيعة اللغزية للرموز ، والغياب الكلي لأي عرض منظم لتاريخ

الطائفة ـ توقع التعرف على أية تفاصيل، ويمكننا على كل حال محاولة تحديد الإطار التأريخي للإشارات التاريخية، وأن نكون بذلك في وضع نتمكن فيه على الأقل من وضع بعض مفاتيح الأحداث والشخصيات الرئيسية داخل تسلسل التاريخ اليهودي كما نعرفه.

ب - الإطار التأريخي

من الممكن تشييد الترتيب الزمني لتاريخ قمران من خلال البينات الأثرية والأدبية، فقد حددت حفريات 1951 ـ 1956م بداية التاريخ الواقعي للمؤسسات الطائفية فيما بين 150 ـ 140 ق. م، والنهاية الأعظم احتمالاً منتصف الحرب الأولى ضد روما في 68م، وتؤكد الإشارات الأدبية، لا سيما بعد التحقق من الأسماء التاريخية، هذا الاكتشاف العام، وتمضي هذه الإشارة على كل حال دون أن تقول: إن المرحلة الأولى لوجود الطائفة لابد أنها قد تقدمت قبل بضع سنوات أو حقب، على تأسيس الطائفة الفعلي في قمران، وعليه؛ إن أول مهمة هي فحص المخطوطات بحثاً عن إشارات عن أصولها، ويذكر التعليق على ناحوم أن ملكاً اسمه أنطيخوس كان حياً عند بداية الحقبة التي تتعلق بها الوثائق، ومع أن أنطيخوس كان واحداً بين عدة حملوا الاسم نفسه، لابد أن يكون أنطيخوس الرابع أبيفانس، المشهور لنهبه القدس وتدنيسه الهيكل في 169 ـ 168 ق. م.

وأعظم أهمية كمؤشر زمني هو التأريخ الذي ورد في وثيقة دمشق وجعل بداية قيام الطائفة مرتبطاً «بعصر الغضب» الذي جاء بعد 390 سنة بعد استيلاء نبوخذ نصر على القدس في سنة 586 ق. م، ويجلبنا هذا إلى سنة 196 ق. م، لكن كما هو معلوم، لم يكن الرواة اليهود ممن يمكن الاعتماد عليهم في إعطاء التواريخ وتدقيقها بالنسبة لحقبة ما قبل النفي، ويبدو أنه لم يكن لديهم فكرة واضحة حول طول مدة الحكم الفارسي، يضاف إلى ذلك: إنهم لم يكونوا متحررين من التأثير الديني لسفر دانيال، حيث أعطيت مدة سبعين أسبوعاً من السنين، أي 490 سنة كمدة فاصلة ما

بين حقبة نبوخذ نصر وحقبة المسيح، وكما حدث إذا ما أضيف إلى عدد 390 التالي عدد 20 سنة أولاً (المدة التي تجمع خلالها أسلاف الطائفة لأخذ طريقهم، وذلك حتى دخل على مسرح الأحداث معلم الحق والصلاح)، ثم أربعين سنة أخرى (المدة التي مرت فيما بين وفاة المعلم وفجر الحقبة المسائحية) نجد أن المحصلة أوصلتنا إلى رقم 450، وإذا ما أضيف إلى هذه المحصلة مدة ولاية المعلم، أي أن تقول 40 سنة ـ وهو رقم مدور تقديري ـ تكون النتيجة سبعين مرة سبع سنوات وهو الرقم التقليدي.

ومع هذا إذا ما جرى رفض الرقم الأدبي / 390/ تبقى هناك أسباب آسرة لوضع «عصر الغضب» في بداية عقود سني القرن الثاني لما قبل المسيحية، ونجد فقط أن الأزمة الهلنستية التي وقعت في تلك الآونة، والتي ورد ذكرها في عدد من المصادر اليهودية الأدبية منذ القرنين الأخيرين لما قبل الميلاد تزودنا بإطار مناسب للإلماعات التاريخية، التي وردت في كتابات الطائفة (انظر دانيال: 9 ـ 11؛ اينوخ 90/ 6 ـ 7، اليوبيلات: 23/ 14 ـ 19، عهد اللاويين: 17، توقعات على موسى: 4 ـ 5)، وفقط الحسيديون لما قبل المكابيين مع أوائل أيام المكابيين هم خير من يتواءم مع الفئة القديمة لكن غير المنظمة حسبما جرى وصفها من قبل. (انظر ما تقدم ص 72 ـ 73).

وبالنسبة لتحديد وقت النهاية في تاريخ قمران، نجده مرتبطاً بظهور «الكتيم»، لذلك علينا تقرير من كان هؤلاء القوم، وفي المعنى البدائي تصف كلمة (كتيم) وتعني سكان كيتون Kition، وكانت مستعمرة فينيقية في قبرص، وحدث فيما بعد أن عمم إطلاق هذه التسمية لتشمل بلا تمييز جميع الذين يعيشون في «كل الجزر وجل البلدان البحرية» (يوسفيوس ـ التاريخ القديم: 1/ 128)، ولكن منذ القرن الثاني لما قبل الميلاد، استخدم الكتاب اليهود كلمة «كتيم» ليعنوا بها بالتحديد القوة العظمى لتلك الأيام، فكتيم في المكابيين الأول (1/ 1؛ 8/ 5) هم إغريق، فقد جرى تعريف الإسكندر الكبير وبيرسيوس Persseus على أنهما ملكا «الكتيم»، ونجد من جانب آخر في سفر دانيال 11/ 30 «الكتيم» هم رومان، فقد تم نقل السنت الروماني

بوبليوس لياناس Poppililus Laenas إلى الإسكندرية بوساطة «سفينة عائدة للكتيم»، وهو الذي أصدر التعليمات إلى ملك الشمال، الملك السلوقي أنطيخوس ابيفانس أن ينسحب حالاً من مصر، فقد كان قد حل اصطلاح «رومان» محل «كتيم» في النص الإغريقي القديم من النسخة السبعينية من سفر دانيال: 11/ 30، ولم يوجه أي من هذه النصوص النقد إلى «الكتيم»، فقد كانوا القوة الحاكمة للوقت، ولكنهم لم يكونوا شديدي العداء لإسرائيل، وفي سفر دانيال لقد أذلوا أعداء اليهود، وليس قبل مرحلة تالية، لا سيما بعد سنة 70م أصبحوا يمثلون الظلم والطغيان.

وفي التعليق على حبقوق عرضت صورة الكتيم بشكل حيادي مثلها في ذلك كما في المكابيين ودانيال (ولم يشغلوا دوراً في وثيقة دمشق، فالعدو الأجنبي هناك هو «رئيس ملوك الإغريق»)، لقد كانوا محط خوف وإعجاب من الجميع، وقد نظر إليهم وقد وصلوا إلى حد إلحاق الهزيمة بـ «آخر كهنة القدس» ومصادرة أملاكهم، مثلما فعلوا مع كثيرين آخرين من قبل، وإن مثل هذا العرض لقوة منتصرة ومتقدمة من الصعب مطابقته على السلوقيين الأغريق لسورية، الذين كانوا في النصف الثاني من القرن الثاني ق. م في حالة انهيار خطيرة، لكن يمكن مطابقته على الرومان، الذين جاء خرقهم وتقدمهم نحو الشرق في القرن الأول ق. م نتيجة لنصرهم على بونطش Pontus وعلى أرمينية، وعلى سلوقي سورية، وأخيراً تمّ مع وصول بومبي إلى القدس في 63 ق. م تحويل دولة الهسمونيين في اليهودية إلى مقاطعة من مقاطعات الجمهورية الرومانية.

وبما أن مطابقة الكتيم مع الرومان مقبول في أيامنا هذه بشكل عام، سيكون كافياً نقل نص واحد، لكنه هام جداً بسماته، من التعليق على حبقوق، وذلك بغية تأييد هذه المطابقة، ففي أثناء تفسير حبقوق؛ 1/ 14 ـ 16 حيث وردت إشارة إلى «الكتيم» كتب المعلق يقول: «هذا يعني أنهم يضحون لأعلامهم ويعبدون أسلحة الحرب» (ق1 ـ بردية حبق: 6/ 3 ـ 5)، ومعروف الآن أن عادة العبادة هذه كانت

السمة المميزة بين سمات ديانة جيوش الرومان في العصرين الجمهوري والإمبراطوري، وهذا يؤكده يوسفيوس في روايته عن الاستيلاء على هيكل القدس من قبل فرق تيتوس Titus في عام 70م حيث قال: «الآن وقد فرّ جميع العصاة إلى المدينة، وقد طوقت النيران الهيكل، حمل الرومان راياتهم إلى ساحة الهيكل ونصبوها في مواجهة الباب الشرقي، وهناك ضحوا من أجلها». (حرب: 6/ 316).

وجدير بالملاحظة أن «الكتيم» في مخطوط الحرب هم الأعداء النهائيين لإسرائيل الأخروية كانوا يخضعون إلى ملك أو إمبراطور (ميخ)، وجاء من قبل في التعليقين على حبقوق وناحوم إنهم كانوا يحكمون من قبل حكام (موشليم Moshelim).

وباختصار يظهر الامتداد الزمني لتاريخ الطائفة على خط واحد بدايته القرن الثاني ق. م ونهايته وقت ما، خلال الحقبة الإمبراطورية الرومانية أي بعد 27 ق. م، ويتقرر هذا التاريخ الأخير بوساطة الحفريات الأثرية في قمران على أنه يتوافق مع الحرب اليهودية الأولى، وأكثر تحديداً مع وصول الجيوش الرومانية لكل من فسبسيان Vespasian وتيتوس إلى تخوم البحر الميت في حزيران 68م.

جـ - ألغاز ذات دلائل خاصة

لقد حددنا أن «عصر الغضب» هو الأزمة الهلنستية لبداية القرن الثاني ق. م، «والجذر» هو الحقبة الحسيدية لما قبل العصر المكابي، و«الكتيم» هم الرومان، والمشكلة التالية هي اكتشاف من كان، أو الذين كانوا، العدو الرئيس، أو الأعداء الرئيسيين للطائفة أيام ولاية معلم الحق والصلاح، الذي ورد ذكره - أو ذكرهم - باسم «المهزلة» و«الكذاب» و«المتفوه بالكذب» و«الكاهن الشرير» (ق1 - بردية - حبقوق، ق4 - بردية - المزمور أ؛ وثيقة دمشق).

وليس من غير المنطقي أن نستخلص أن هذه الشتائم كانت موجهة إلى الشخص نفسه، وكما يبدو ومن وثيقة دمشق أن «المهزلة» و«الكذاب» (انظر أيضاً

ق4 ـ بردية ـ مزمور أ [37]) كانا واحداً، ولم يكونا اثنين، («عندما قام المهزلة الذي صب على إسرائيل ماء الكذب» ـ وثيقة دمشق: 1/ 14)، ونقرأ عن «الكاهن الشرير» أنه دعي «باسم الصدق» (ق1 ـ بردية ـ حبقوق: 8/ 8 ـ 9) عند نهاية ولايته، وتغيرت الإشارة إليه فيما بعد وصار يدعى «الكاذب».

وهناك قاعدة أساسية أخرى هي لا بد أن الشخص المقصود في معلومات الجذاذات الموجودة في المخطوطات قد أصبح الرئيس، والقائد الوطني للشعب اليهودي، وصحيح أن الأسماء التوراتية غالباً ما استخدمت بشكل رمزي، بما في ذلك اسم «إسرائيل»، ولكن الأعمال المعزوة إلى «الكاهن الشرير»، تغدو فارغة وغير منطقية إذا لم يمارس الشخص موضوع المشكلة سلطة كهنوتية ودنيوية، فلقد «حكم على إسرائيل» وقد «سرق. . ثروات رجال العنف الذين ثاروا ضد الرب»، ولعل المقصود هنا المرتدون اليهود، وسرق أيضاً «ثروات الشعوب» يعني غير اليهود، وبنى «مدينته مدينة العبث بالدم» واقترف «أعمالاً مقيتة في القدس، ودنس هيكل الرب» (ق1 ـ بردية ـ حبقوق)، وإذا ما أخذت هذه الملاحظات منفردة، ربما يمكن أن تفهم رمزياً، لكن إذا ما قدرناها مجتمعة، تقدم حجة قوية لإدراك «الكاهن الشرير» بمثابة كاهن أعلى كان يحكم في القدس.

على هذا كان «الكاهن الشرير» كاهناً ذا منزلة دينية رفيعة، ويتمتع بسمعة جيدة قبل تسلمه لمنصبه، وكان منتصراً على أعدائه في الداخل والخارج، وقد أعاد بناء القدس (انظر ق1 ـ بردية ـ حبقوق 8/ 8 ـ 11، ق4 ـ 448)، وألقي القبض عليه أخيراً وأعدم من قبل خصمه الأجنبي.

ويضع الدليل التاريخي الذي تأسس في الفقرة المتقدمة الحقبة التي أينع فيها هذا الشخص بين حكم أنطيخوس أبيفانس (175 ـ 164 ق. م)، والتاريخ المحتمل للتأسيس في قمران (150 ـ 140 ق. م)، فلقد شغل خلال ذلك الوقت خمسة منصب الكاهن الأعلى، كان ثلاثة منهم من الموالين للأغريق هم: ياسون، ومينالوس

وألكيموس، وكان المتبقيان هما الأخوين المكابيين: يوناثان وسمعان، ومن الممكن إزاحة المتهلنسين من الترشيح لدور «الكاهن الشرير»، بحكم أن ما من واحد منهم قد تمتع بسمعة جيدة في بداية حياته الكهنوتية، فياسون، وألكيموس، لا يصلحان للترشيح أيضاً لأن ما من واحد منهما قد قتل من قبل عدو، وفق ما جاء في (ق1 ـ بردية ـ حبقوق 8 ـ 9)، فقد توفي ياسون في المنفى (مكابيون 2: 5/ 7 ـ 9) وتوفي ألكيموس وهو يشغل منصبه (مكابيون 1: 9/ 54 ـ 56)، ويلبي بالمقابل الأخوان المكابيان جميع الشروط، فقد وقعت حياة كلا الرجلين في مرحلتين واضحتين، فبالنسبة لقضية يوناثان: قبوله بمنصب الكاهن الأعلى من الإسكندر بالاس، أما بالنسبة لقضية سمعان بترحيبه في أن يصبح كاهناً أعلى وراثياً، وكلاهما كان «آلة ظلم وعنف»، وماتا أيضاً بالعنف، ومع هذا يفضل اختيار يوناثان ويرجح على سمعان لأنه وحده الذي عانى من الانتقام من «رئيس ملوك الإغريق»، ومات على أيدي «عنف الأمم» في حين كان سمعان قد قتل من قبل ختنه (مكابيون 1: 16/ 14 ـ 16)، وكمدافع شجاع عن الديانة اليهودية والاستقلال، خلف يوناثان البطل يهوذا في 161 ق. م، بعدما سقط هذا الأخير في المعركة، ولكنه تأهل للقب «الكاهن الشرير» عندما قبل في 153 ـ 152 ق. م، أردية الكهانة العظمى التي لم يكن يحق له لبسها، وقد تقبلها كما هو معروف من الإسكندر بالاس، وهو كافر مغتصب للعرش السلوقي، لم يمتلك الحق في منحها، وألقي القبض فيما بعد على يوناثان من قبل تريفون الذي كان من قبل قائداً لدى الإسكندر بالاس، وقتل تريفون يوناثان في بسكمة Bascama عبر الأردن (مكابيون 1: 8/ 23).

وفيما يتعلق بتحقيق شخصية «آخر كهنة القدس»، تشير عبارات النقد: «الرغبة في الاستيلاء، والثروة، والنهب» إلى الهسمونيين الكهنة الحكام بدءاً من ابن سمعان: جون هركانوس الأول (134 ـ 104 ق. م) إلى يهوذا أرسطوبولوس الثاني (67 ـ 63 ق. م)، وهناك يمكن أن يكون قليل شك في أن «الأسد الغاضب الصغير»، الذي أشير إليه أيضاً على أنه الراهب الأخير، وذلك في تعليق على يوشع مدمر

تدميراً شديداً (ق4 ـ بردية ـ يوشع : 2/ 2 ـ 3)، كان واحداً منهم، وأنه كان الاسكندر يانوس، وأن نجعله هو المعني بكلمات ناحوم : «الذي طبخ الصيد للبوته» وبرواية أن الأسد الشاب أعدم «طالبي الأشياء اللينة» «بشنق الرجال وهم أحياء» يتطابق تماماً مع القصة المعروفة بأن يانوس قد صلب ثمانمائة فريسي بينما كان يحتفل مع خليلاته (انظر ما تقدم ص 74).

ويتبع من هذا إذاً؛ أن «أفرايم» يتطابق مع ما جاء في التعليق على ناحوم عن «طالبي الأشياء اللينة» الأمر الذي يرمز إلى «الفريسيين»، وإذا صح هذا لابد أن «منشا» ورجالاته فيه إشارة إلى «الصدوقيين»، وبكلمات أخرى : أعداء طائفة الإيسينيين الدينيين والسياسيين ـ مع أن الطائفة امتلكت علاقة أولية مع الصدوقيين والفريسيين.

ومرد انقسام المجتمع اليهودي إلى ثلاث فئات متعادية إلى المواجهة التي وصفها يوسفيوس وقال إنها كانت موجودة منذ أيام يوناثان المكابي (التاريخ 13/ 171)، غير أن الأضواء الجديدة التي تزودنا بها المخطوطات تقترح أن المقاومة الجماعية للهلنستية، قد أزيحت جانباً عندما رفض المكابيون أو ـ بشكل أدق ـ يوناثان الاعتراف بالقيادة الروحية لمعلم الحق والصلاح، والرأس الكهنوتي للحسيديين، ورأت الطائفة منذ ذلك الحين فصاعداً أن المرتدين عنها هما «افرايم» و«منشا»، وبما أن هذين الاسمين ـ اسمي ابني يوسف ـ هما اللذان ارتبطا بالتاريخ التوراتي مع القسم الشمالي من المملكة، وهو القسم المعادي للقسم، الذي يشير إلى نفسه باسم «بيت يهوذا» في الجنوب المؤمن.

ولسوء الحظ نحن لا نمتلك شيئاً واضحاً بشأن تحديد هوية «معلم الحق والصلاح» وهو الموضوع الأكثر حيوية بين جميع المواضيع، وإذا صح وكان يوناثان المكابي هو «الراهب الشرير»، يكون بالطبع المعلم واحداً من معاصريه، ومع هذا كل ما نعرف عنه أنه كان كاهناً (ق1 ـ بردية ـ حبقوق : 2/ 8؛ ق4 ـ بردية ـ المزمور [37/ 2/ 15]) وبلا شك كان من التابعية الصادوقية، لكن من البديهي أنه كان خصماً

لأونيا الرابع، بحكم أنه لم يلحق به إلى مصر ولم يتبع هيكله غير الشرعي في لينتوبولس، لقد أسس، أو أعاد تأسيس الطائفة، ونقل إلى أعضائها تفسيره المتميز للأنبياء- إذا كان لنا أن نعتمد بشكل غير مباشر على الأقل على التراتيل - وللشرائع المتعلقة باحتفالات الأعياد، ولم يوافقه «الكاذب» والمتعاطفون معه من تجمع الحسيديين، وبعد مواجهة عنيفة بين الفئتين، ربح فيها «الكاذب» اليد العليا، هرب المعلم مع الباقين إلى مكان للالتجاء دُعي «أرض دمشق»، وقد اقترح أن هذا كان اسماً رمزياً قصد به بابل، الموقع الأصيل لميلاد الطائفة، أو أن دمشق هو اسم رمزي لقمران، ذلك أن «بيت أبسالوم» لم يقدم أي عون لمعلم الحق والصلاح ضد «الكاذب» حسبما كتب المعلق على حبقوق (ق1 - بردية - حبقوق: 5/ 9 - 129 ويستدل من هذا القول أنه كان يعول على مثل هذا العون، وإذا كان «أبسالوم» أيضاً اسماً رمزياً، هو بلا شك يذكرنا بعصيان أبسالوم ضد والده داود، ويشير بذلك إلى الخيانة للعلاقة القريبة أو للصداقة الحميمة للمعلم، هذا من جانب، ومن جانب آخر، بما أن «بيت أبسالوم» لم يتهم بهجوم مباشر، بل بالبقاء صامتاً أثناء «مطاردة» المعلم، نجد أن هذا التعليل يمكن أن يكون غير مقنع، وعلى هذا قد تكون الإشارة عندها إشارة مباشرة، لقد كان هناك شخص يدعى أبسالوم كان سفيراً ليهوذا المكابي (مكابيون: 11/ 17) وكان ابنه متتيا Mattathias واحداً من أبرز قادة يوناثان وأشجعهم (مكابيون: 11/ 70) وولد آخر له اسمه يوناثان تولى قيادة جيش سمعان الذي استولى على يافا (مكابيون 1: 13/ 11).

وفي الوقت نفسه، والمعلم ما برح «في مكان منفاه»، ظل يتعرض للأذى والعدوان من قبل «الكاهن الشرير»، وفي هذا المقام كانت أهم الأحداث وأكثرها إيلاماً هي مطاردة الكاهن للمعلم إلى مقر إقامته بهدف تشويشه «بغضب غلّه» حيث ظهر أمام أفراد الطائفة يوم «سبت راحتهم» في «الوقت المحدد لراحتهم ليوم الغفران» وكان قصده «جعلهم يأثمون في يوم الصيام»، ومن الصعب القول من خلال البينات المتوفرة حتى الآن ماذا حدث تماماً في تلك المناسبة المنذرة، وفيما إذا كان في ذلك

اليوم أو فيما بعد «ألقى» الكاهن الشرير القبض على المعلم «بهدف إعدامه»، ذلك أن معاني الكلمة ملتبسة، فعلى سبيل المثال: إن الفعل الوارد في (ق1 ـ بردية ـ حبقوق: 11/ 5 ـ 7) والذي ترجم إلى «يشوش»، يمكن أن يعني «يبتلع»، وهكذا اختار بعض العلماء لأن يفهموا أن المعلم قد قتل من قبل الكاهن الشرير في وقت الزيارة تلك، هذا ونلاحظ من جانب آخر أن في صيغة الفعل الناقص (التي يمكن أن تترجم إلى الإنكليزية إما بصيغة الحاضر أو المستقبل): «الشرير من أفرايم ومنشا.. استهدف/ سوف يستهدف: إلقاء القبض على الكاهن وعلى رجال مجلسه.. لكن الرب أنقذ/ سوف ينقذهم: من بين أيديهم» (ق4 ـ بردية ـ مزمور [11 ـ 17 ـ 19])، وبكلمة أخرى إننا لا نعرف من الذي كان مؤسس الإيسينيين، ولا كيف ولا متى أيضاً، وفقط الكتّاب الذين يتمسكون بالفكرة البعيدة الاحتمال بالمطابقة بين المسيحيين والطائفة يدعون أنهم أفضل إخباراً، لكنهم غير متفقين فيما بينهم، فقد ذهب ج. ل. تيشر Teicher إلى أن المعلم هو يسوع، وبالنسبة لبربارة تيرنغ Barbara Thiering كان يسوع هو الكاهن الشرير، ويوحنا المعمدان هو المعلم، ورفض ر. هـ. ايسينمان الشخصين وفضل جيمس العادل، «أخو الرب» وهكذا جعله معلم الحق والصلاح.

وقد حوجج أن العجز في التعرف إلى هوية معلم الحق والصلاح في إطار الحقبة المكابية يلغم أساسات البناء ككل، وتم التساؤل: هل يمكن التصور لماذا توجب أن عدداً من تعاليم المعلم لم تترك أثراً في الأدب العائد إلى ذلك الزمان؟ والجواب لهذا الاعتراض هو أن مثل هذه الكتابات هي مرتبطة ـ لكل المقاصد والغايات ـ بسفري المكابين، وهما مصدرين سياسيين منحرفين نحو تفضيل أبطالهما، متجاهلين أساساً وجود أية حركات معارضة، واعتمد يوسفيوس نفسه المكابيين الأول، ولهذا لا يمكن عدّه شاهداً حيادياً، لكن حتى وإن لم يكن هو كذلك، كان لديه مواداً إضافية تحت تصرفه، وإن سكوته المتعمد عن ذكر معلم الحق والصلاح لا يستحق تعقيباً خاصاً منذ أنه أيضاً لم يذكر مؤسسي الفريسيين والصدوقيين، وبالمناسبة عدد

المؤرخين الذين قالوا إنه لم يكن لديه ما يقوله عن يسوع الناصري ليس قليلاً، ويصرون على أن المعروف باسم الشهادة الفلافينية (التاريخ القديم: 18/ 63 ـ 63) هو إقحام مسيحي في النص الأصلي للتاريخ القديم، (مع أن آخرين بما فيهم أنا نفسي يرون إنها جزء أصيل من النص)، وليكن الأمر حسبما كان، هو لم يتلفظ بكلمة واحدة عن هيلليل Hillel المعلم الفريسي الأكبر، ولا حول يوحانان بن زكاي Yohanan Ben Zakkai الذي أعاد تنظيم اليهودية بعد تدمير الهيكل، مع أن هذين الرجلين قد عاشا في قرن يوسفيوس، ومؤكد أن يوحانان كان معاصراً له.

وأقر أن المعلومات المتناثرة المتنوعة التي استخلصت من مخطوطات البحر الميت أنتجت إجباراً قصة مرقعة، لكنها أساساً صحيحة، واستمرار جهلنا بالمعلم لا يؤثر شيئاً في إفسادها، والآن بغية جعل التوليفة الحالية كاملة، بقي علينا أن نلتفت نحو يوسفيوس للاطلاع على إشاراته خلال بعض المناسبات إلى أفراد إيسينيين وإلى الإيسينية.

بداية لابد أن نبين أن أربعة من الطائفة قد ورد ذكرهم بالفعل لدى المؤرخ اليهودي، ارتبط ثلاثة منهم مع نبوة، وواحد منهم هام بشكل متميز بالنسبة لمعلم الحق والصلاح نفسه، وقد عرف الأول باسم يهوذا، صُودف في القدس، وقد أحاط به مجموعة من الطلبة كانوا يتدربون على «الإنباء عن المستقبل»، مما قد يعني: كيفية مطابقة النقاط التنبؤية على الأحداث المستقبلية، وقد كتب يوسفيوس عنه يقول: «لم يعرف عنه الكلام بزيف في تنبؤاته، وأنه توقع موت أنتغونوس Antigonos أخي أرسطوبولوس الأول (104 ـ 103ق. م)، (التاريخ القديم: 8/ 311 ـ 313)، والنبي الإيسيني الثاني واسمه ميناحم كان قد تنبأ كما يبدو أن هيرود سوف يحكم اليهود (15/ 373 ـ 378)، وأظهر هيرود امتنانه نحوه بإعفاء الإيسينيين من أداء يمين الولاء المفروض على كل رعيته من اليهود، ذلك أن الإيسينيين كانوا يعادون أداء جميع صيغ الأيمان باستثناء قسمهم بالميثاق، وإيسيني ثالث اسمه سمعان فسر مناماً لأرخيلوس

Archelaus والي اليهودية (4 ق. م ـ 6م) في سنة 4 ق. م بأن حكمه سيمتد عشر سنوات (17/ 345 ـ 348) ولم يكن جون الايسيني، وهو آخر عضو من الطائفة أشار إليه يوسفيوس، نبياً، بل كان قائداً ـ ستراتيغوس ـ لمنطقة ثمنة (خربة تبنة) في الشمال الغربي من اليهودية، ومدن اللد، ويافا، وعمواس في بداية الثورة الأولى (حرب: 2/ 567)، وكان رجلاً «قويا من الدرجة الأولى وقديراً» وقد سقط في معركة عسقلان (3/ 2/ 19)».

وأخيراً صور يوسفيوس بلغة مشرقة شجاعة الإيسينيين الذين تعرضوا للتعذيب من قبل الرومان:

«امتحنت الحرب مع الرومان نفوسهم عميقاً، فأكثر عمقاً بوساطة كل أداة من أدوات التعذيب، لقد خلعوا وعصروا، وحرقوا، وكسروا، وأجبروا على المرور خلال كل أداة من أدوات التعذيب من أجل إرغامهم على شتم مشرّعهم، أو لأكل أشياء محرمة، لقد رفضوا الرضوخ إلى أي مطلب، ولم يتذللوا أمام معذبيهم أو سفحوا دمعة واحدة، كانوا يبتسمون أثناء آلامهم، وسخروا من معذبيهم بكل لطف، وكانوا سعداء في التخلي عن أرواحهم، واثقين أنهم سيعاودون استلامهم ثانية. (حرب: 2/ 152 ـ 153)».

وبما أنه يستدل من هذا النص أن الرومان كانوا لا يعذبون الأفراد فقط بل الجماعات، وإذا ما وضعنا في أذهاننا الادعاء الأثري أن مستوطنة قمران قد دمرت من قبل الرومان، فإن هذا يغرينا بربطه بالحكاية التي تقول: إنه تم الاستيلاء على الإيسينيين بوساطة البحر الميت، ولئن صح هذا الاستنتاج، يكون اختفاء الطائفة من التاريخ قد حدث نتيجة ضربة مميتة عانى منها مركزها الرئيسي خلال الصيف القاتل لعام 68م، وواضح من حقيقة أنه لم تجر محاولة لاسترداد الـ 813 مخطوطة من الكهوف تأييد لهذا الذي توصلنا إلى تشييده حول نهاية قمران والإيسينيين.